

بَيْطَان بَنْتُور

— ٢ —

(المحادثة الثالثة)

قال الهدد : كنت في صدورى عن ميت رهينة تحت سماء الليل أنظر قلة الرسوم لديها . وأرى تدور الاطلاع عليها ، وما هى الا مقابر بعض الملوك ، ومدفن العجل أليس وذلك التمثال في حفرة التى تنزل به عن سطح الارض بقدر ما جرى الدهر على منفس في سائف الاحقاب ، وما عقدت سنابك خيله عليها من متراكم الحصى والتراب . فاعجب له كيف لم يبق من حواء العواصم غير بقية لا تذكر ، في جانب ما رأيتها عليه من السعة المتناهية والعظمة الجمّة والعمارة المدهشة ، وتبصرت مليا في السبب فلم أر الداء الا موقعها الذى عرضها في كل زمان للفيضان يعلوها ، وسلبها الى رياح الصحراء تختلف عليها فتدروها . وذهبت مع المؤرخ عبد اللطيف (١) الى ان معظم البلوى انما جاء من عبث الامم المختلفين أديانا ، الذين أغاروا على وادى النيل ، ومدّهم يد الحسد الى آثار الفراعنة بمعاول الجهل ، وما زال الحسد يمرصد للفضل ، وما انفك الجهل عدو العقل .

قال « وكان جوّجى قد جاش بالشعر عند ما نظرت التمثال في حاله ، وخبرته في يوميه ، فقلت فيه :

إن جئت (منفا) وهى أو لي بازديارك وانتياك
ومررت بالاطلال مرأ في بجيتك أو ذهابك
بالأمس كنت مؤلها ماذا لقيت من انقلابك
لا ينظرون الى ذرا ك وينظرون الى رحابك
ويخاطبونك راغد ين الى ثوابك أو عقابك

أزرى برميسيس البلى وهوى به زمن هوى بك

١٠. يشير الى المؤرخ الوصافى عبد اللطيف البغدادى صاحب وصف مصر المعروف

وقصار خطبك عند ذى نظير يبالغ في خطابك
عابت احداث الزمان فكنت اكمل عند عابك

وحضرني بشأن هذا الاثر شيء من قبيل ما مر بالفكر بشأن الاهرام ، فأملت من جهة ان ينشط المصريون يوما ما لتشييد بنائه ، وتكملة اعضائه ، وتجديد حسنه وروائه .
عساهم يقضون بهذا العمل الجليل ، حق خير ملك لخير جيل ، رأى وادى النيل .
وتمنيت من جهة اخرى ان تفشو التماثيل في مصر ، لأن فيها بعض المكافاة لمن سلف ،
وتعظيم شأن الحياة في نفس الخلف . ثم فكرت في رجل عظيم القدر جليل المقام خطير
الشأن في صحائف الايام ، لاصحف الاقوام ، تضيء مزاياه ثانيا التاريخ ، وترفعه اعماله
فوق البرجاس والمرىخ ، اذا مات رشحته الامة المصرية ، ليمثل بالحجارة الابدية ، وييجل
بالكلمات الذهبية . (١) فما زال في الوهم والخيال ، حتى وجدت طلبتي في الرجال ، ولم
يبق الا عمل التمثال . فقلت حيثن في نفسي « أين من يصنعه وأين آلات ترفعه » ، وكنت
خرجت من احلامي في المدينة الغابرة ، وبلغت مقامي في ضواحي القاهرة ، فمت
أطيب المنام ، أصل الاحلام بالاحلام ، حتى اذا طلع الفجر ، انتهت اشواق
ما كنت الي النسر . يطول النهار ولا صبر ، كأن احدي ساعاته شهر ومالي
لا اشتاق إلى معلمى الحكمة في الحديث ، وملهمى القديم من العلم والحديث ،
ومثل الحقيقة في حسي ، وكنت أجهلها في أمسى ، أو أغالط فيها نفسي : ولما جاء الأصيل
هجمت الى شاطئ النيل ، فوجدته كما عهدته ، والفت الحال مازال . صغرت مدينة وكبرت
مدينة ، وعطلت ضفة وضفت على أختها الزينة ، فاطمان قلبي وقلت صدق النسر وعده
وعمدت لأقرب الزوارق الحاضرة ، وهى كالعرائس في النيل خاطرة ، بعضها في جيثة
وذهاب ، ومنها المتسابق في كل منساب ، الآخذ بأنواع الرياضات والالعب ، حتى
خيل لي انه التاميز ، أو أنى لى السين في باريز . فطرت اليه وأنا أحسب أنى سأجد سارية
أحط عليها . واستند في وقوعي اليها ، فلقيت جزاء من ينقل قدمه ولا يبصر قدامه اذ
علق جناحي فالتفت فاذا أنا في يد رجل تعلوه كبرة وقطرة ، ويضرب لونه الى الصفرة ،

« ١ » لقد صحت الامينة وتحققت بظهور المغفور له سعد زغلول باشا فقد اخذت مزاياه في التاريخ به ورفعة
ايماله فوق البرجاس والمرىخ . وانيج له في مصر من النفوذ ما لم يتح من قبله لدارد ولا لابنه سليمان

وعليه ثياب مزر كشة من ثمين الكتان ، وقد جلس امامه غلام من أوسم ما استخدم الكبراء فقلبي قليلا ثم دفعني الى ذلك الغلام وقال هذه طلبتنا ساقها الآلهة الينا ، فحفظ عليها فقد تفاءلت أن شفائي فيها . مازال طيب الرأس يحلني على طيب الاحشاء ، وهذا يرشدني الى الطيب الروحي ، وهو يرى دوائى فى مسألة الما^٢ كل وقد أعت الجيع على ، حتى وصف لنا مضحكنا (أوتا) الذى اشتهر بصدق تجاربه على قصر قامته ، وتشويه خلقته ، أن رأس الهدهد اذا سحق وأضيف اليه قلامة من حافر البغل ، ومزج هذان بشئ من شحم الخنزير المذبوح قربانا لاوزيريس الاله والقمر فى ليلة تمامه ؛ ثم تناولت كل يوم حبة من هذا التركيب ، فقد ينفعني ذلك فى على نالتى حارت فيها العقاقير وعجز عنها الاطباء .

قال الهدهد فما استم الرجل حتى ذبحت من الذعر بغير مديّة ، وقلت فى نفسي ما ذنبى حتى يختلط رأسى بحافر البغل وشحم الخنزير ، وليس أحقر من هذين . فجعلت أفكر فى حيلة تنقذنى من هذه الميته الشنيعة فرأيت أن انطق لعل الامير يستعظم الأمر فيضن بى . ففعلت فاذا أنا طليق الجناح أطير فنظرت تحتى فرأيت الرجل يشير نحوى براحتيه كأنه يستغفر لى أو يستغيث بى ، والزورق يكاد ينقلب بمن فيه ، من هول ما فاجأ رجاله من أمرى ، وشهدوا من حالى مع مولاى . فضحكت من رؤيتهم على هذا الحال ؛ وارتفعت فى المطار ، حتى جازتني المدينة فجعلت أحط تارة فوق جدار ، واستتر أخرى فى الاشجار ، وانتقل من حانوت الى دار ، وانا فى هذه الاثناء الحظ بمحمل الاحوال ، واتزود من المدينة نظرة عامة فرأيت حركة لم أَر مثلها فيما غبر ، وشهدت من العظمة ما يصغر المدائن الكبر . شوارع وسيرة ؛ ودور رفيعة ، وحدائق بديعة ، وجماهير متدفقة ، وشرطة منبهة متفرقة ، وخيل مركوبة ، ومركبات مجرورة ومخازن تفيض من صنوف المتاجر ، وحوانيت لا تحصى لديها ضروب الصنائع . وكان من أعجب ما رأت العين أنس الحيوان الى الانسان ، واطمئنان الطير اليه فى كل مكان ، تمشى بجانبه آمنة ، وتتوئب حوله مطمئنة . وأعجبها الكراكي نالتى رأيها تألف الأهل ، وكنت أظنها لا تستأنس . ورأيت نساء العامة يحملن أحماهن على الاكتاف ويجعلها رجالهم فوق الرؤس ، وتلبس المرأة ثوبا واحدا ويلبس الرجل ثوبين وقد دهشت من توحّد الزى عند القوم ، وايتارهم من اللباس الكتان والصوف

واختيارهم من الالوان الأبيض مع نظافة تضرب بها الأمثال، فكأنما كملت الجوامع فيهم حتى هذه .

ونحيتهم في الطريق أن يعطي أحدهم يمينه الى الارض واذا عارض كبير هم صغيرهم تنحى حتى يعبر، واذا مر به وهو جالس

قام له حتى يمر . ورأيت جميع الحيوان في الطريق الا الخنزير، ثم عرفت السبب اتفاقا . وذلك انى ابصرت بزحام فاقتربت منه فعلبت من تساؤل الناس أن أحدهم تمسح به خنزير فهم يسوقونه الى النهر ليغسل فيه بجميع ثيابه ، وهم يعتقدون أنه لا يظهر بدون ذلك . فرثيت في نفسى لحاله وضحكك من أمر هذه العادة . ثم احتوانى ميدان عظيم ينحسر الطرف في جوانبه ، ولا تحيط العين باطرافه ، فابتهجت باستقباله ، وقلت لعله ميدان الملك ولعل الملتقى قريب .

وفي الواقع كان الاستاذ بنتور أول أنسان وقع نظرى عليه . رأيته يشير بوجهه المتهلل نحو السماء ، وكأنما يفتش عنى الجواء وينشدنى في طبقات الهواء . فلما أخذنى بصره رفع يده يستزلنى فهبطت فيها ، ثم وثبت منها الى كتفه منتفضا من التأنس والحبور ، مرتقا من غلب السرور .

فسألنى عن أمرى ، ومالقيت من وحدى ، فى رحلتى . فحدثته حديثى أوله وآخره . فضحك من حادثته الزورق وقال تلك واحدة لم يكن لك عنها غنى ، وأنت فى أول أبامك بهذه المدينة . لأنى أردت أن تجمع فى حكمك عليها بين ماتسمع منى وما تراه فى خاصة نفسك من أحوال أهلها وأطوارهم واخلاقهم وعاداتهم . فمارأيك فى ذلك المريض ؟ قلت أحق جاهل يامولاي ، وأطباؤكم أحق منه وأجهل . وأنى لاعجب منهم كيف يبلغون فى الطب إجارة الجسد من الفساد ، وحفظه من البلى على مدى الآباد ، ثم ينزلون الى الايمان بالرقى والطلاسم ، واعتقادهم ان رأس الهدهد وحافر البغل من العقاقير النافعة فى بعض الادواء ؟

قال: الخرافات يابنى وجدت مع الانسان منذ البداية ، وسوف تصحبه الى النهاية ؛ ولو بلغ من المدينة أقصى غاية . وأظنك عهدت باريز لاتخلو منها وهى فيما يزعمون عاصمة العواصم ، وكرسى التمدن القائم

قلت كذلكه يامولاي . قال لكن هلا أخذت من عبارة المريض أن الاطباء في منفيس . ضروب ، وأن توزع الاعمال قاعدة التطيب بينهم . فهذا للرأس وذاك للبطن والآخر لأمراض العين ورابع لأدواء الأذن . كل على قدر اجتهاده في الفرع الذي وقف نفسه عليه . وهذا ما صار اليه الطب أخيرا عند الغربيين ، وهم يعتقدون أن ذلك بداية النجاح الحقيقي و فاتحة عصر للعلوم الطبية ، لا يقف ارتقاؤها فيه عند حد . فلو لم يكن من فضل اطبائنا الحمقى الجهلاء سوى أن القوم أخذوا عنهم هذا المبدأ الجليل ، لكفي على أنني عالم بان الطب لم يتقدم في هذه العاصمة التقدم اللائق بمنزلتها في الحضارة الجدير بمبالغها في المدنية ولهذا الأمر أسباب :

أهمها قلة الامراض في هذه الامة ، لأنهم من جهة يعتنون بامر نظافة الابدان والملابس ، إذ من عاداتهم أن يغتسل واحد منهم ثلاث مرات بالنهار ومرتين بالليل . فثلهم كالمثقفين منكم معشر المسلمين الذين يتوضئون خمس مرات في اليوم . ومن جهة أخرى لأنهم في الغالب رجال عمل ونهوض وحركة ، وإذا كان النشاط في الطباع ، سلبت الجسوم من الاوجاع .

وبديهي أن توسيع العلوم يكون بقدر الحاجة اليها فاذا عظمت عظم الاشتغال بها ، وكثر الاختراع فيها وإذا قلت قل . وأكبر برهان على ذلك ما أشرفت اليه من بلوغنا الدرجة القصوى في التخطيط والتصبير ، فلو لا اعتقاد الافراد ان الاجسام بعد الموت مقدسة لا ينبغي أن يصل اليها الفساد ، لما اجتهد الاطباء المختصون بهذا الفن فيما يمارسون من جليله وحقيقه ، حتى بلغوا فيه درجة الأعجاز ، منساقين برغبة الكافة ملين منادى الحاجة العامة . وما يقال عن التخطيط يقال كذلك عن فن العمارة والانشاء ، فليس السبب في رقيه بيننا هذا الرقي المعجز الباهر ، إلا مبالغة المصريين منذ القدم في قيمة الآلهة وتصورهم إياهم في منتهي العظمة المؤيدة الأزلية ، فلا يرفعون لهم من الهياكل إلا ما يليق بمقامهم هذا ، ويسكنونه إلى الأبد . على أنك لو قسمت دور الأهالي من جميع الطبقات . وما رأيتها عليه من البساطة والاقتصاد في البناء ، بالهياكل وما شهدت من فخامتها ، واجتليت من زخرفها ، لعلت أن دعواي مبرهنة من نفسها ، ولأيقنت أن قصور المصريين في الطب لم يكن عن جهل وقلة ذكاء ، لكن عن عدم حاجة ماسة وقلة اعتناء .

قلت وصلى مولاي وأفاد . لكن هذا ميدان الملك فأين قصره ؟ قال وتظل تحلم بالملك وقد أذكرتني أن لي كلمة أقولها لصانعه الخاص بأمر جلالة ، فلنبداً به الآن . قلت . الأمر اليك يا مولاي ، فشى النسر وأنا فوق كتفه حتى مر بحانوت ضيق المدخل زرى المنظر فرأيتهم بالولوج ، فقلت لعلك ضال يا مولاي ، فثل هذا الحانوت لا يكون لصانع الملك . قال بل الضال أنت يا كثير العجلة . فخرست ودخل الأستاذ فخف لاستقباله رجلان كهل و غلام ، وكانا ساعة دخولنا متقابلين على منصة للعمل مكبين على الذهب يفرغانه ثم يصوغانه ، فحياء حق تحية ، ثم عادا إلى العمل وأخذا بما كانا فيه وعندئذ قال الرجل للاستاذ أتأذن يا مولاي أن أتم حديثي مع هذا الغلام ثم ألتقى أوامرك . فأجابه افعل فلا نكره أن نشاطره الفائدة فاندفع الرجل يقول :

اعلم يا بني أن الأمانة رأس مال التاجر ، وهى والاتقان كلاهما رأس مال الصانع . وقد صيرتهمالى عادة منذمارست هذه الصناعة، فلم أكلف عملاً إلا استجمعت قواى لتحديده وأحكامه، وفكرت فى اتقانه قبل الفسرك فى إتمامه . فأن بدائقص بعد ذلك برأت نفسى وقلت على بذل الجهد ، وليس على أخذ المستحيل . وكنت فى بدء تعاطى هذه الحرفة مساعداً لمحبة الحقيقة استاذى الذى انتقل إلى الدور الأبدية ؛ فتعلمت منه محبة العمل والاخلاص فيه وبذل الجهد فى اتقانه ، وهو الذى ذهب تابوت الملك سبى والد جلالة الملك ونقشه فأبدع نقشه وكان أجره عن ذلك مائة قلادة من الذهب خرجت إليه من الخزائن الملكية فهأنه يومئذ بما نال من جسيم الربح فكان جوابه لى

واعلم أنه لو عرضت على خزائن الملك جمعاء وأنا فى العمل أصنع التابوت لما أعرتها نظراً لآنى رجوت أن يقال ملك الصناعة، شرفها يوم مات ملك الجماعة . فوعيت هذه النصيحة كما يوعى الوحى الآتى من جانب الآلهة وهأنأ أبذلها لك كما بذلت لى من قبل فكانت، أصل سعادتى وسر نجاحى والسبب فى تحصيل هذه الثروة الجسيمة . وارتقائى فى القصر هذه المنزلة العظيمة

قال الهدهد: وكان الرجل يقدم النصائح لتليذه وكأنها قلائد يصوغها وبتنوير يتناب و يتمطى فخشيت أن يحول بنومه المعهود دون سماعى مقالة الصانع إلى آخرها

هكان ماخفت أن يكون ، وغلب على النسر النعاس فقال لى بلسان متلعثم اذا جاء الليل
نامت الشياطين ، فارجع الى عشك الآن والقنى غدا فى هذا الحانوت
قال الهدهد: لم يكن الا اغماة حتى رأيت نفسى فوق سطح بيت العمدة فى ميت رهينه
فاستعذت بالله واقلعت من فورى للطيران، أووم عشى فى حلوان.

(المحادثة الرابعة)

قال الهدهد : وكان الغد فأصبحت فيما أمسيت فيه أهفو الى النسر ، ولا اطيع
عنه صبرا ، والنفس الى ما يشغلها شقة ولعة . فما زلت رهن أحوال وجار عيش
وأشغال ، حتى زينت السماء الدنيا بالآصال ، وإذا أنا من جوجى فى سفينة عند
دأماة ، وهى تجرى فى بحر ولا ماء ، من مذاهب السماء . دفتها ريشتان ، وشراعا
جناحان . فاستوت على ما وراء النهر . وانى لفى الحانوت كأنى لم أبرحه ، أرانى فوق
كف النسر ، أنظر الى الصائع والغلام وكأن مامر فترة من حلم ، اذ الحديث متصل
والصائع يقول : هذا يابنى صاحب الملك وشاعره ، وبوقه فى الغزاة وظله فى النقلة ،
وداعيه فى الامة ، وآية ملكه فى الاولين ، وحديثه من بعده فى الآخرين أوفده حفيد
السموات ، وشعاع الشمس فى الجماعات ، برسالة عملت بها قبل أن تبلغ الى .
ثم التفت الى بنتوور وسأله قائلا أليس أمر الملك يامولاي أن تنقبش على القلائد
الثلاث صورته الثلاث يوم قدم طيبة ظافرا ، ويوم صلى صلاة الظفر فى هيكها ويوم المهرجان
وكانت اشارته السابقة أن تتضمن الصور الثلاث حملته على الاعداء فى آتيش ، ودخوله
المدينة فاتحا ، وجلوسه لملكها ومترفوها يأتون أدلة صاغرين . ؟ قال فى هذا جئت ،
فلعل انسانا جاءك به قلبى

فتبسم الصائع حينئذ وقال انه ليس انسانا . إنه الملك بذاته أشرق هذا الحانوت
بنوره . وكأنى به قائم عند رأسى : يقول اصنع كيت وافعل كيت ، وأنا جالس كما أنا
الآن أحدثه كما أحدثك ، ثم مشى تظله السماء وتحرسه عين ذكاه .

قال الهدهد : قد دهشت مما سمعت ، وودت لو كنت حاضرا فى تلك
الساعة أرى الملك وأسمع حديثه وتحسر الغلام كذلك وسأل استاذة قائلا وأين
كنت يا مولاي عند ما تقدس هذا المكان بالملك ؟ قال كنت فى اصباحك لم تغد

بعد الى العمل فلم أشأ أن يخجلك ان تعلم أن ملك الملوك سبقك الى حانوت انت فيه صبي تتعلم صناعة . فخرس الغلام وتلون ألوانا من الخجل .

ثم قال الصانع يخاطب الاستاذ ليس العجب يامولاي أن يسعى الملك الى عبده . فان دأبه الأخذ بيد العاملين ، فكيف بعباده المخلصين أمثالي ؟ على أن كبار الملوك يتكبرون لأخذ الحكم التي لا تنفذ على الملك حجابهم ، وطلب الحقيقة التي لا تلج عليهم . أبوابهم ، كما يتكبر صغارهم ليزدادوا من الصغار لكن العجب كل العجب أن يلغى الملك قد الغيت العمل بأمره الاول ، قبل أن ينقضه ، وعملت بما جاء من أجله قبل أن أعلم به .

أمهله ريثما تكلم وأشار وأمر ، ثم كشفت عن القلائد بين عينيه ، فاستغرب الأمر وسأل عن السبب . فقلت له : القلائد يامولاي للملكة الصغرى وهى بنت ملك آنيش الذى كان عزيزا فاذلته ، وملكها فاستعملته ثم صاهرته ، وأنت تحبها وتفضلها فى هوى القلب على سائر نساءك ، ولجل من مسد تجعله فى جيدها ، أحب اليها من قلائدك التى تذكر هفاشل قومها وذل أيها . فسر الملك بما قلت له وأقرنى على من اخذت به من العمل وقال خلق الغرور للملك ، وقد يبلغ بنا معشر الملوك حتى نسى الى أعز الناس علينا ، ونحن نحسب أننا نحسن اليه .

قال الهدهد : ثم ودع الاستاذ الصانع وخرجنا وأنا أقضى العجب مما سمعت و رأيت ، ولا أستطيع مع الاستاذ صبرا .

فلما صار وحده قلت له : حفظت أشياء وغاب عنى شيء واحد . يامولاي . قال وما ذاك . قلت انفاذ الملك اياك فى أمر سبقت به كلمته للصانع . فتبسم ثم قال : هذا من تأديب رمسيس صحابته لكيلا يطغو . يعلمنا أن له جسدا قد مين ، ولسنا وعينين وأن يبين غمر العامة ولفيف الخاصة من لا يحوزه مجلسه ، من يليق أن يسعى الملوك اليه ، ويأخذوا الحكمة عنه . قلت تظل تشوقنى اليه فهل آن أن أراه أم لم يأن يامولاي ؟

قال لكل شيء ميقات ، وليس هذا وقت رؤية الملك فاصبر معى أو انقلب إلى عشك جاهلا محروما ، فاستعنت بالله على الاستاذ فى نفسى ، ولذت بالصبر فى أمرى .

وظفق يوجب في الطرق ويجول في الازقة ، حتى خرجنا إلى بناء رفيع فوق طريق وسيع فقصده الأستاذ قصده فسألته ماهذه الدار يا مولاي ولمن؟ قال هذه يابني شمس النهار ومشرق الانوار ، ومهبط الحكمة والاسرار ونقطة تلاقي العقول الكبار دار الادب والفلسفة أسسناها على مثال الدار الكبرى في طيبة وكنا أربعة فلم يعض علينا عشرون عاما حتى نمت وربت ونجحت ورقت ، وأصبحت من تعدد الاساتذة وتكاثر الطلاب وتهافت المستفيدين من الاجانب ، علماء وفلاسفة بحيث تضارع اختها في طيبة ويميزها أن ليس للملك ولا للحكومة ولا لكهنته يد في التأسيس ولا سبيل على التدريس وانها غراس الافراد وإحدى هممهم ، فانظر إلى الكثير كيف يأتي من القليل

وعن ميمون أمر هذه الدار أن وزير الخزينة السلطانية لما سمع بها وزارها وهي في أيامها الاولى كتب لها صكا بربع ثروته الواسعة تستوفي ذلك في حياته وبعدmates ثم مات وانتقلت روحه الكريمة إلى (المغرب) (١) وكان قد أدخل ولديه فيها فلا ورأس الملك يابني ما رأيت أنجب منهما ولا أحب للعلم ولا أصبر على تحصيله ، ولا أطلب للغايات فيه إذا ذكر قتيان المملكة في مجلس صاحبها سماهما واثى عليهما ، وسمع ثناء الناس فيهما . فليت اباهما يرد الى الحياة لينظر كيف تجزى العناية المحسنين ، وتجعل عماد بيوتهم من بعدهم البنين ؟

قلت سعداء اتم معشر الآباء ، اتفق اربعة منكم ولن يتفق اثنان منا وبذل احدكم ربع ماله في البر ، ولن ينفق أحدا دخل عام واحد في صالح الاعمال . ونحن الذين قال بعضهم فينا (اتفقوا على ان لا يتفقوا) (٢) فاحفظت عبارتي الأستاذ وقال : ما هذا السم في الدسم ، ومن ذاك الذي يشبط الهمم ؟ هذا ومثله أيها الهدهم من الاوهام وأنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها . الاوهام داء الامم ومنية الشعوب ، اذا تمكنت من قوم كانت كالفأس في الاساس ، وكالنار في الشعار ، وكالحبل في الخناق ، وكالعلة في القلب لا يحقق معها الا الى حين . ومن تبالغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر ، تبالغ هذا الداء فيه . حكومته دواليب تدور بالاوهام ، وبلدانه مملوءة

(١) كانوا يعتقدون أن الروح بعد مفارقة البدن تذهب الى حيث تغرب الشمس .

٢ كلمة معروفة للسيد الافقاني اتفق المصريون على ان لا يتفقوا ولعل زمانها قد مضى الان .

ما بين السماكين من الاوهام ، وأمه تروح وتغدو حيث تجعلها الاوهام . نظر الواحد منهم في الامور عرضا وبعين غيره ، وحكمه فيها من الهوى ، وانقياده في ايراده واصدارها بأزمة الاوهام .

قال لكم رجل قولافو همتمكم فتم أحياء . ليس مع السلوة عيش ، ولا مع القنوط عمل ، ولا مع اليأس حياة . وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهين الغرائم ، وامانة القلوب ، واخراج النفوس من الرجاء الى اليأس ، الذى هو الموت فى أشنع صورته ، وأقبح احواله .

قلت الأوهام يا مولاي داء الامم ، منذ القدم . لم تخل منها أمة خالية ، ولن تخلو منها أمة آتية . فما بالك تلزمها فريقا دون فريق ، وتكرها على قوم ولا تنكرها على آخرين ؟ قال خلق الانسان

من ضعف ، فكان الوهم أول دين دان به ، وأول حكومة دان لها ، وأول شيطان سكن اليه كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ، ويتخذ منها آلهة يسجد لها ، ولا يزال آخر الدهر يتوجه اليها بالتأليه والتقديس والتزيه . وإذا عبد الله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود ، كان لله الشطر من تلك العبادة ، وللأوهام . الشطر . فالمسيحى يبلى الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاماً وتقييلاً ، كما يضع المسلم خده فى عتب الاضرحه بالقاهرة تمسحاً وتأميلاً وتعظيماً وتبجيلاً . وكان فى شبيهة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ، ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله . ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عباداً للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشهم الحجاب وضللمهم الاستبداد .

فالسُلطان فى الأصل للوهم لا للسلاطين وحقيقة الطاعة له لا للبالكين ، وكان الوهم أول شيطان سكن اليه الانسان تولد منه يقينه ونشأ من عليه وجرت عليه أموره ، وأبنى عليه حكمه ، وتألف منه مألوف من عاداته . يحس به ويشعر ، ويسمع به ويصير ، ويعجز به ويقدر . وبه يعيش ، وعليه يموت . خلت آلاف من السنين وحافر البغل فى مصر حافر البغل فيها ، يسمح فى وهم بعض الناس من بعض العلل ، ويشفى من بعض الأمراض ، ومضت مئات من القرون والميت فى مصر يحنز آخر الدهر كما كان يحنز أوله فلورفع الصليب من جنازة قبطية ، وصين القرآن ، عن أن يرتله

الهمل في جنازة مسلمة ، لحيل لك أنها جنازة ميت منا معشر القدماء . رسوم احتفال وقربان ، وأكل وحشو تراب ، وشق جيوب ، ولولة نساء ، وعويل عييد واماء وندب الميت ونعته بكيت وكيت . والأوهام يابني كما قلت لا تخلو منها الأمم الكبيرة والشعوب الحية ، إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة . لا تتجاوزها إلى الخاصة ، إلا ما ندر . كما أنها تتملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحلة ، فيكون للخاصة منها مثل حظ العامة ، وهنا عظيم البلوى ، ومنتهى نكد الدنيا .

أليس من الرهم القاتل للأنفس ، المميت للقلوب ، أن يصح في اذهان خاصة المصريين من امرء وعظاء ، وأدباء وعلماء أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى في أمرهم صلاح ، وأن اتفاقهم سابع الجهات ، ورابع المستحيلات ، وأن الوطن ميت وإنهم ميتون ؟ وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التي لا تنطبق على نوايس الوجود ولا ترد إلى أحوال البشر ، وحوادث التاريخ .

الأمم يا بني لا تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت في أزمنة الاضمحلال ، فما تلك إلا بؤس تزول ، وحال استحول . الأمة تصح ثم تقتل ، ثم تصح . تتجدد من حيث تبلى ، وتقوم من حيث تسقط ، وتصح بالعلل

هذه اليابان . هل كان في حسابان أحد أن تضم صوتها يوماً ما إلى أصوات دول الغرب في مسألة من أكبر مسائل العصر ، وتطمع مع الممالك الطامعة ، وتسير الجيوش في البر ، وتخرج الاساطيل في البحر ؟ (١) وقد كانت وأنت في زمن الدراسة لا يذكرك اسمها إلا مقرونا باسم الصين ، عنوان المهجعة ، وعنوان التوحش . والمشبّه به إذا ذكر التأخر والانحطاط . وعرض على المسيو « تيرس » الوزير الفرنسي المشهور مشروع يراد به إنشاء السكة الحديدية في فرنسا فسخر منه علانية في المجلس ، وعده ضرباً من الهذيان ، ثم لم يمض نصف قرن على ذلك حتى أصبحت سكك الحديد في فرنسا تكاثر الانعام . وقارن المؤرخ فوليه الشهير بأسفاره الطويلة في الشرق وكتبه الجليلة عنه ، بين القاهرة وباريس على عهده ، فذهب إلى أن عدد أهالي القريتين واحد ، وأنهما كليهما تضاءل بالسيرج وزيت الزيتون وتحصنان من الخارج بالأسوار ، ومن الداخل بالابواب ، وأن الإنسان لا يخرج فيها

(١) إشارة إلى حرب اليابان مع روسيا وهزيمتها لها .

بعد ساعة معلومة من الليل ، الى غير ذلك من شبه التأخر ومخايل الانحطاط . و « فولنيه » ، هذا قدم القاهرة في أيام المماليك ، وكتب ما كتب عنهما في القرن الثامن عشر . فانظر كيف تبدلت الامور وتحولت الاحوال ، واصبحت باريز كما عهدت عروس عواصم الغرب ، تعاض كل يوم عن ضوء بضوء ، وتبدل حصونا بحصون ، وتذهب مخترعات وتأتي مخترعات ، وتخرج المدنية من ابوابها ، وتمتد الى ما وراء أسوارها ، من تكاثر الاعمال ، وتزاحم العمال ، على كثرة ما أصابها بعد « فولنيه » من مصائب الدهر ونوائبه ، فكم هول ثورة لاقت ، ونار حرب ذاقت ، وخراب اليه انسأقت . وكم حكومة قلبت ، ودولة غيبت وملك قتلت ، وقصر عزلت .

كل ذلك في قرن ونصف قرن ثم كانت النتيجة خروجها من دجنة هذه الحوادث سافرة زاهرة . عظيمة فاخرة فلو أن أهلها دعوا الى اليأس فلبوا . وقال لهم عقلاؤهم موتوا أحياء فسمعوا . لكن النتيجة بقاءها على ما وصفها عليه « فولنيه » أو اضيق حلقه وأشد انحطاطا من هذا ومنه تعلم يابني أن العلم والبيان خلقا ليكونا حرا بآعلى الاوهام : ونورا يخرج اليه الامم من الظلمات وان حاملهما مطالب بالعمل والدعوة الى العمل ، حتي النفس الاخير من الحياة فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم ، فازوا والوجه عنه وانفردا بالاسماع منه ، ومن دعاكم الى حياة ، فذلك داعي الخير فاستمعوا له وانصتوا : قال الهدهد : فما استتم النسر حتى ملئت حياة واملا وثقة من المستقبل الذي اعتقد أنه بيد الله ، اذا شاء صد عنه واذا شاء أقام فيه .

وكان للاستاذ درس يلقيه على الطلبة ، فادرك ان الوقت سرق بعضه بعضا ، وأن حديثه معي كان السبب في ذلك . فغضب في نفسه وهروا حتى دخل القاعة الكبرى وهناك خف مئات الطلبة له اجلالا ، ثم انحنوا اكبارا ، وكان ملل الانتظار تبدو دلائله على وجوههم ، فتأملتهم وأنا لا أصدق حسي فيما أنظر وأسمع ، فاذا هم جميعا مردأوا كالمرد ، لان من عادتهم إزالة شعر الوجه كما قدمنا ، وعليهم أردية ضافية من الكتاب الأبيض .

ثم تصدر الاستاذ للتدريس ، كأنه الملك على عرشه ، فغلب على السرور وقلت في نفسي الآن نلت من السعادة ما لم ينله أحد . لكنني ما أهبت للسماع حتى ثأب النسر وغشيته السنة المعهودة ، فالتفت الى يقول بلسان يعقده النعاس إذا جاء الليل ذهب الشياطين . وموعدا غدا هذا المكان ، فاستعذت بالله . وخرجت من أحلامي ، واذا أنا في وكري بحلولان .

(يتبع)